الفصل الثانى

أزمة التعليم الجامعى المعاصر

أظهرت كل الدلائل خلال السنوات الأخيرة أن التعليم الجامعى يمر بفترة تحول هامة فرضتها عليه الأزمة التى عاناها وعاشها خلال تلك السنوات .

وقد تفاوتت هذه الأزمة فى درجة حدتها وتنوع مظهرها . وكان أهونها رفض الأساليب التقليدية الجامعية وانتقاد الجامعات بأنها ليست سوى مصنع للشهادات والدرجات الجامعية، وأنها مازالت تسير على أساس التقسيم التقليدى الرباعى الذى ساد جامعات العصر الوسيط (الاداب والحقوق والعلوم والطب) . وقد جاء هذا النقد من جانب أساتذة الجامعة أنفسهم فى الدول المختلفة .

وقد وصلت هذه الأزمة إلى قمة عنفوانها على يدى طلاب الجامعات عندما قاموا بالمظاهرات والإضطرابات التى هزت الدول المختلفة فى الشرق والغرب على السواء .

ففى نوفمبر ١٩٦٧ قام الطلاب فى إيطاليا باحتلال حرم جامعة «تورين» طيلة شهر كامل . ومن «تورين» إمتدت حركة الطلاب إلى جميع أنحاء ايطاليا وانضمت إليها الروابط والمنظمات السياسية التى كانت تسيطر على طلاب الجامعات . وهى رابطة الشيوعيين والديمقراطيين المسيحيين والأحرار والفاشيست . ولذلك كانت حركة الطلاب فى إيطاليا حركة موجهة بصورة أساسية من جانب اليساريين .

وقد انتقدت هذه الحركة الجامعة نقدا لاذعا كمنظمة طبقية تسلطية . وفى مايو سنة ١٩٦٨ إهتزت فرنسا هزة عنيفة على أثر اندلاع ثورة طلابية عمت البلاد وشلت حركتها . والواقع أن حركة طلاب الجامعات فى فرنسا هى فى جوهرها ثورة ضد المجتمع من ناحية وضد التقاليد الجامعية التقليدية من ناحية أخرى . وقد عبر الطلاب عن ضرورة أن تصبح الجامعة منبرا حرا للنقد الإجتماعى ومناقشة التنظيمات السياسية والاجتماعية . وطالبوا بإعادة تنظيم الجامعة وأساليب العمل بها مع ضرورة إشتراكهم فى الإدارة الجامعية .

وقد صدر بالفعل فى ٧ نوفمبر ١٩٦٨ أى بعد حوالى خمسة أشهر من ثورة الطلاب قانون لتنظيم الجامعات الفرنسية . وهو القانون الذى عرف بقانون التوجيه

Orientation أو قانون «إدجار فور» نسبة إلى وزير التربية الفرنسى آنذاك . وتضمن القانون كثيرا من المبادئ التى نادى بها الطلاب مما سنشير إليه بالتفصيل فيما بعد عند الكلام عن الجامعات الفرنسية . وقد أباح القانون للطلاب الإشتراك فى مجالس الجامعة والمجالس القومية والإقليمية للتعليم والبحوث .

وفى إنجلترا فى نفس العام تزعم حركة الإضرابات طلاب مدرسة الإقتصاد بجامعة لندن وطلاب جامعة مانشستر . فكانت لهم طلبات مماثلة وصدرت تنظيمات تشرك الطلاب فى إدارة الجامعة . وشملت هذه الإضرابات طلاب الجامعات فى ألمانيا وأسبانيا وهولندا وأمريكا واليابان والبلاد العربية والدول الإشتراكية فى بولندا وتشيكوسلوفاكيا والمجر وغيرها .

ومع أن قلق الطلاب بالجامعات ظاهرة عامة فى العالم كله فإن الأسباب والدوافع وراء هذا القلق تختلف من دولة لأخرى .

ففى الولايات المتحدة الأمريكية كانت حرب فيتنام مصدرا حيا لعدم رضا الطلاب إلى جانب بعض الإعتبارات الأخرى المتعلقة بالحقوق المدنية والتمييز العنصرى .

وفى الدول الأوروبية الغربية نجد أن معظم الطلاب غير راضين عن الأحوال السياسية والإجتماعية . ولهذا أحسوا بالإغتراب وعدم الرضا عن مؤسسات هذا المجتمع ومن بينها الجامعة . وقد يشترك مع طلاب أوروبا فى هذا الجانب كثير من الطلاب فى مختلف بلاد العالم . كما أن النزعات اليسارية واليمنية والإيديولوجيات المختلفة وتصارعها يجد فى محيط الطلاب مجالا خصبا لاستغلالهم والتأثير عليهم ومحاولة توجيههم واستغلال مجموعات منهم لحساب قوى مستفيدة خارج المجتمع الجامعى .

وفى الدول الإشتراكية كما فى بولندا والمجر وتشيكوسلوفاكيا نجد أن من أهم أسباب قلق طلاب الجامعات تطلعاتهم نحو تحقيق الحريات الأسياسية للإنسان وفى مقدمتها حرية الكلمة والبحث العلمى .

ويجب أن ينظر إلى أساليب العنف التى يستخدمها الطلاب فى التعبير عن سخطهم كاستخدام القنابل وحرق المبانى وتخريب المنشآت على أنها مدمرة للجامعة

كمنارة للدرس والبحث العلمى . ويجب أن تواجهها السلطات الجامعية بحزم شديد من جانبها . لقد ظل الطلبة والشرطة فى مختلف بلاد العالم فى السنوات الأخيرة فى عراك مستمر يقتلون بعضهم بعضا . مع أن الضرر الذى يلحقه الطلاب بالحياة الجامعية هو أيضا موجه إليهم أنفسهم لأنهم المستفيد الأول من استقرار الدراسة . ولأن الإضرابات تعنى ضياع الوقت والجهد الذى يحتاج إليه الطلاب لإعداد أنفسهم للمستقبل .

ومع أن الأسباب وراء الثورات الطلابية فى جامعات الدول المختلفة تختلف من دولة إلى أخرى كما أشرنا فهناك أساس مشترك يجمع بينهم . فالجامعات الحديثة رغم ما تحاوله من العمل على تطوير أساليبها التقليدية لم تتطور بالدرجة الكافية التى تحقق طموح الشباب وتطلعه إلى الدراسة الجامعية . وكثير من الطلاب يشعرون بل ويحتجون بأن المناهج لا تمس مشكلات العصر . وقد يكونون محقين فى هذا بعض الحق أو كله . كما أن إنعزال الأساتذة عن الطلاب تحت ضغط الأعداد الكبيرة أدى إلى شعور كثير من الطلاب بالضياع . وفقدت الجامعة قدرتها على توجيه الطلاب ورعايتهم .

وسبب آخر وراء أزمة التعليم الجامعى أن الكثير من جامعات اليوم تسلك عادة أحد طريقين : إما أنها تنظر لجامعات العصر الوسيط كما أشرنا لتستمد إلهامها أى أنها تنظر إلى الخلف . وإما أنها تحاول أن تستجيب للضغوط المباشرة التى تتعرض لها فتحاول أن تحل مشكلاتها العاجلة بأساليب مرتجلة موقوته . أى أنها تنظر تحت أقدامها . وقلما تتجه الجامعة لوضع خطة توجهها نحو المستقبل أى تنظر إلى الأمام. ولابد للجامعة أن تتجه إلى التغيرات المطلوبة فى ظل مجتمع عالمى متطور باستمرار ولابد للجامعة أن تعمل من أجل مستقبل أفضل للبشرية .

إن من أهم أسباب أزمة التعليم الجامعى المعاصر أنه ورث كثيرا من التقاليد الجامعية لجامعات العصر الوسيط كما ورث معها كثيرا من المشكلات التى تركتها هذه الجامعات بدون حل . وكان على جامعات العصر الحديث أن تواجه هذه المشكلات التى نغصت حياة الأساتذة والطلاب فيها . وليس هذا انتقادا لجامعات العصر

الوسيط كما أنه لا يعنى أن كل ما ورثته للجامعات الحديثة معيب فقد كان هناك كثير من التقاليد التربوية الرائعة .

ولقد كانت الجامعات فى العصر الوسيط تهتم بالمنافشات الفلسفية العقيمة . وسيطرت الشكلية المدرسية على تفكير أساتذتها . وبعدت دراستها عن المجتمع ومشاكله مما حدا ذلك ببعض الكتاب من أمثال : «ولز» بوصف مثل هذا الإنتاج الكلامي بأنه «أكبر زبالة» فكرية فى التاريخ . ذلك أنهم أى أساتذة جامعات العصر الوسيط لم يهتموا بحقائق العصر وحقائق الحياة وحقائق المجتمع . لكنهم كانوا أكثر انشغالا بمسائل التفكير المجرد كعدد الملائكة الذين يقفون فوق سن الابرة على سبيل المثال . وقد ورثت الجامعات الحديثة هذه الفلسفة المدرسية فى التفكير . وسيطرت على الجامعات وعزلتها عن مجتمعها لفترة طويلة . ولم تنته إلا مؤخرا . إن الدراسات الكلاسيكية التى ظلت تدرس بالجامعة حتى السنوات الأخيرة قد أصبحت جامدة وبعيدة عن حقائق العصر .

وهناك نقطة أخرى تتعلق بأزمة التعليم الجامعى المعاصر هى انه نتيجة للتوسع فى ديمقراطية التعليم الجامعى من ناحية وتفجر الآمال والمطامح لدى الشعوب من ناحية أخرى أن زاد الإقبال على التعليم الجامعى ، وفتح الأبواب لمختلف الطبقات . ولم يعد تعليما للصفوة كما كان . وترتب على هذا تغير فى الأصول الإجتماعية للطلاب ووجدت الأصول الإجتماعية المتواضعة مكانا لها بين جدران الجامعة . وبعض هؤلاء الطلاب يحملون فى نفوسهم بذور النقمة على المجتمع والتحامل ضده والسخط على الأوضاع الإجتماعية فيه والإستعداد للثورة والتمرد ضده .

وزاد من أزمة التعليم الجامعى أنه فى ظل نظمه التقليدية لتعليم الصفوة يحاول أن يعلم أعدادا متزايدة باستمرار من الطلاب . كما أنه فى ظل هذه النظم أيضا حمل أمانة القيادة الفكرية للمجتمع ووكلت إليه مسؤولية التغير الاجتماعى .

إن الشئ الذى قد يبدو غريبا حقا أن الجامعات فى مختلف بلاد العالم قد أسهمت بصورة كبيرة مباشرة فى إحداث التغيرات الفكريه والثقافية والإجتماعية . وكانت هذه التغيرات سريعة بدرجة لم تتمكن الجامعات نفسها من ملاحقتها . وكان من الصعب عليها أن تكيف نفسها بدرجة كافية ، وفى الوقت المناسب لتعيش الظروف

التى هيأتها هى بنفسها . وكأنما يبدو أن أحد مظاهر أزمة جامعات اليوم أنها هدمت نفسها بنفسها .

إن لب التحدى الحقيقى للتعليم الجامعى المعاصر كما يبدو يتمثل فى دوره المتجدد باستمرار فى خدمة المجتمع . بل وقيادة التغيير فى هذا المجتمع . إن فلسفة التغير التربوى والإجتماعى تستند إلى عنصرى المحافظة والتجديد . وهما طرفا معادلة صعبة قد يبدو أحيانا أنهما متناقضان . ولكن الواقع أن التغير التربوى المتزن يقوم على أساس التوازن الدقيق بين طرفى هذه المعادلة . ففى الوقت الذى يستند التغير فيه على الأساس المحافظ يخطو رويدا إلى الأمام فى ثقة وانتظام واستقرار تميزه عن التغير الجذرى أو الراديكالى الذى يقتص الجذور التقليدية ويبدأ من جديد وهو ما يسمى أحيانا بالتغير الثورى .

والحقيقة أن التعليم الجامعى فى الدول المختلفة مر خلال الأسلوبين من التغير الطبيعى والقسرى أو الراديكالى أو الثورى . وفى ظل الأسلوب الأخير إهتز التعليم الجامعى من الأعماق وظهرت أنماط جديدة منه على بعض أنقاضه القديمة كان فى مقدمتها الجامعات التكنولوجية .

كيف تستطيع جامعة اليوم إذن أن توائم بين مواجهة الظروف المختلفة المحيطة بها والضغوط الخارجية والداخلية عليها وبين القيام بالمسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتقها ؟ وكيف تواجه أعداد الطلاب الكبيرة والظروف المالية الصعبة والقيم المتصارعة والإتجاهات المتباينة التى تتجاذبها ؟ وكيف تستطيع فى ظل كل هذه الأمور أن تتطور بسرعة لتساير التفجر المعرفى الهائل الذى تتضاعف معه المعرفة يوما بعد يوم ، وما يرتبط بذلك من مشكلات الشمول والتخصص المعرفى . وكيف يستطيع الأساتذة أن يقوموا بمسؤولياتهم الجامعية فى ظل هذه الأعداد الكثيرة من الطلاب وفى ظل مشكلات حياتهم الخاصة وظروفهم الصعبة ماليا وإجتماعيا ؟ وكيف تستطيع بعد كل هذا أن تقود الجامعة التطور الإجتماعى وتدفع بعجلته إلى الأمام ؟

وأخيرا وليس آخراً كيف تؤقلم الجامعة نفسها وكيف تشق طريقها فى ظل العولمة والنظام العالمى الجديد ؟